

جوليا كريستيفا: تثوير النموذج

د. محمد بوعزة

استاذ باحث من أكاديمية مكناس/المغرب

ولدت جوليا كريستيفا سنة 1941، هاجرت من بلغاريا إلى فرنسا كطالبة عام 1965، وانخرطت في الحياة الفكرية والثقافية والسياسية، وانضمت إلى المجلة الأدبية الشهيرة (تل كل) لحررها فيليب سولرس، وكانت منبرا ثقافيا للحركة الطليعية غير المحافظة في الفنون والكتابة.

برزت كريستيفا أول الأمر في المشهد الفرنسي في أواخر الستينات، معروفة بأعمال ميخائيل باختين ومفسرة لها. وبعد ذلك، فرضت نفسها باعتبارها منظرة سيميائية هامة في اللغة والأدب. وبرأي أغلب المختصين، فإن أهم إنجاز لكريستيفا هو كتابها "ثورة اللغة الشعرية"، حيث تنطلق من منظور جديد دينامي وجدي، مختلف عن النظريات اللسانية والسيميائية ذات التوجه الصوري الرياضي، إذ تعتمد على تحليل جديد ابتكرته واصطلحت على تسميته بالتحليل الدلائلي (الدلائلية) لاستكشاف العمليات والاستراتيجيات التي تتدخل بها العناصر "اللاعقلية" والمتغيرة لانتهاك نظام العناصر المنتظمة والمقبولة عقليا، بحيث يصبح الشعري في ممارسته السيميائية انتهاكا "للعادي" و"المألوف"، وتدميرا ل"القانون" ولكافة أشكال السلطة.

هذا الرفض المطلق لسلطة أي نسق، تترجمه المغامرة العلمية لكريستيفا. ذلك أنها رفضت التوقع في نظام معرفي مغلق، وظلت تنتقل بحرية بين الحقول العلمية، تحتفي بفكرة العبور الذي يخرق الحدود والأنساق، تنقص أكثر من صورة، عالمة

سيمائية وناقدة أدبية ومحللة نفسانية ومنظرة في النظرية النسوية. واحدة من أبرز نقاد البنيوية وما بعد البنيوية، لم تستع الإقامة الدائمة في أسطورة الإطار، ظلت شغوفة بمطاردة العلامات عبر اللسانية في مختلف أشكالها الدالة. وبذلك استطاعت أن تجسد عبر ممارستها السيمائية فكرتها عن الذات كصيرورة، متحررة من سلطة النسق، عابرة بين اللسانيات والسيمائيات والنقد الأدبي والتحليل النفسي والمادية الجدلية والفينومينولوجيا.

فكرة العبور الثقافي ستقود كريستيفا إلى بلورة تصورهما لمفهوم النظرية كنوع من **النفي** بالمعنى الفلسفي الجدلي، ينتهك وحدة النموذج، ويتيح للذات ممارسة تعدد لا يقبل الوحدة إطلاقاً، تعدد يترجم الخصائص المتغيرة لبنية للذات، حيث تظل النظرية مفتوحة على احتمالات لانهائية، تفكر في نفسها بوعي نقدي، دون الخضوع لسلطة الأنساق الشمولية، بفضل حركة نفي داخلي، تستحثها على تجاوز حدودها والانفتاح على التحوم المعرفة، في موقع تقاطع عابر، منزاح عن أي تمرکز وانغلاق.

في هذا المفهوم الجدلي تشكل النظرية عند كريستيفا **كمنطق**، ولكن عوض أن يكون منطقاً سورياً، يكون منطقاً جدلياً، بمعنى نقد لمنهجها وموضوعها ونقد للعلم في نموذجها الوضعي الحيادي. وهذا ما سمح لكريستيفا أن تطور نموذجاً جدلياً منفتحاً، في نقطة التقاطع بين السيمائيات والمادية الجدلية (ماركس) والتحليل النفسي (فرويد ولاكان) والفينومينولوجيا (ميرلوبونتي) ونظرية الأدب والنسوية.

السيمائيات كعلم نقدي:

لقد سعت كريستيفا إلى إعادة بناء موضوع السيمائيات في وضع ابستمولوجي معقد بصراع النماذج وتجاوزاتها المتداخلة، يتوجه فيه الخطاب العلمي إلى النموذج اللغوي بغية بناء نماذجها. "فمادامت الممارسات (الاجتماعية: أي الاقتصاد، والعادات والفن...) تصورت نظاماً دالاً "مبنياً وشبيهاً باللغة" فيمكن لكل ممارسة أن تدرس دراسة علمية، على اعتبار أنها نموذجاً ثانوياً بالنسبة للغة الطبيعية، حيث ستنمذج هذه وسينمذجها."¹

1 جوليا كريستيفا: السيمائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ترجمة عبد السلام فزازي، مجلة نوافد، جدة، ع 8، 1999، ص 57.

في هذا السياق الاستيمولوجي الموسوم بهيمنة النموذج العلمي، سيكون على السيميائيات بناء موضوعها، أو بالأحرى البحث عن نموذجها بإستراتيجية مغايرة. هنا تكمن المشكلة، مشكلة إثبات حق الوجود لخطاب يكون قادرا على إنتاج معرفة خاصة بموضوعه من جهة أولى.

وفي سياق هذا التحدي الأول (مشكلة التأسيس)، ستجد السيميائيات نفسها، وهي تخوض مغامرة البحث عن الذات في وضع مفترق الطرق، في مواجهة تحدي النموذج العلمي، الذي فرض عليها ترسيم حدودها الاستيمولوجية، في صيرورة "ارتباطاتها الاستيمولوجية باللسانيات، بل باقتباسها لنماذجها التي قد توظفها وتستهملها عند محاولة تحديد نفسها، من علوم شكلية بحثة (الرياضيات، المنطق، اللذان يعتبران شعبتين لعلم واسع "نماذج اللغة".¹ لمواجهة تحديات هذا الوضع الاستيمولوجي، سيتجه تفكير كريستيفا إلى صياغة نظرية للسيميائيات عبر إستراتيجية ثلاثية المسارات:

- البحث في مفهوم وماهية السيميائيات.
 - البحث في أدوار السيميائيات.
 - البحث في الخصوصية المميزة للسيميائيات عن بقية العلوم.
- وهذا ما يوضح أن مهمة التأسيس ستتخذ مسارين: مسار حفري يبحث في العناصر ذات الدور التكويني، ويحفر في المرجعيات ويفسر الاختلاف والتعدد في المستوى الاستيمولوجي، ومسار استكشافي يستقصي المميزات والأدوار والمهام الجديدة للسيميائيات. هذه الخطة ستمكن كريستيفا من تحديد موقع السيميائية بمنظور نقدي تفكيكي في تاريخ العلم وتاريخ الفكر العلمي.

يبدأ مشكل التأسيس من محاولة بناء تعريف للسيميائيات، ذلك أن السيميائيات في أصل نشأتها الحديثة - في نظر "دي سوسور" - تحتوي العلم الواسع للعلامات، ولا تمثل اللسانيات إلا جزءا منه فقط، باعتبار أن اللسان ليس سوى نسق خاص من ضمن الأنساق السيميائية. إلا أنه ظهر لاحقا أن موضوع العلاقة في السيميائيات (حركة، صوت، صورة...)، لا يمكن الوصول إليه انطلاقا

1 المرجع نفسه، ص 60.

من نسق اللغة. وسيوضح أن اللسانيات لا تمثل جزءا ولو أنه حقا جزء متميز من علم العلامات، بل تعتبر السيميائيات جزءا من اللسانيات: وهي أساسا الجزء الذي يعتني بأهمية الوحدات الكبرى الدالة في الخطاب¹.

في إطار تأويلها للسانيات سوسور، تحدث كريستيفا تجاوزا في تصوره لعلاقة النموذج اللساني بالسيميائيات، حيث ترفض التأويل الحصري للمقترح السوسوري الذي يرى إن اللسانيات يمكنها أن تصبح النموذج العام لكل سيميولوجيا، رغم أن اللسان ليس إلا نسقا خاصا².

وانسجاما مع تصورها الجديد للسيميائيات، لا تحتفظ كريستيفا سوى بالجزء الثاني في تعريف سوسور للسيميولوجيا، أي اعتبار اللسان ليس سوى نسق خاص. وهذا يتيح في نظرها أمام السيميائيات إمكانية الانفلات من قوانين دلالة الخطابات كأנסاق للتواصل، وتفكر في ميادين أخرى للتدليل.

وتعد القطيعة مع التأويل الحصري - بحسب مارسيلو - لميدان السيميائيات بالنسبة لكريستيفا خطوة حاسمة في أن تشق السيميائيات لنفسها منعطفا جديدا لا يرقن إلى شكلنة الأنساق السيميوطيقية من وجهة نظر التواصل، بل أن تبادر باقتحام المشهد الآخر وهو التفكير في قوانين الدلالة دون أن تبقى أسيرة اللغة التواصلية التي تغيب فيها مكانة الذات³.

في سياق تداعيات هذه القطيعة مع النموذج التواصلية، تعيد "كريستيفا" تحديد موضوع السيميائيات: "إنها شكلنة، وإنتاج للنماذج. وسنذكر أيضا عندما نذكر لفظ سيميائية في صياغة نماذج (وهو ما يجب القيام به)، فالنماذج في هذا الصدد تعني الأنظمة الشكلية التي تقابل أو تماثل في بنيتها نظام آخر (أي بنية النظام المدرس)⁴". غير أن الإشكال الابستمولوجي الذي ينبثق من هذا التعريف، يطرح المشكل الأساسي المتعلق بموقع السيميائيات في نسق العلوم. ذلك أن هذا التخصيص لدور

1 المرجع نفسه، ص 59.

2 مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، ترجمة جماعية، إفريقيا الشرق، 1987، ص 69.

3 مارسيلو داسكال، ص 70.

4 جوليا كريستيفا: السيميائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ص 60.

السيمبيائيات في في شكلنة النماذج، يواجه تحديا في أن السيمبيائيات لا يمكن أن تكون حيادا سوريا مطلقا، بمعنى لا يمكن أن تتأسس بمعزل عن العلوم، ولا حتى بحياذ المنطق واللسانيات. "فالسيمبيائيات تساهم باكتشافها للخطابات في "تبادل تطبيقي" بين العلوم... وتتموضع من ثم في موقع تقاطع عدة علوم هي نفسها نتاج تداخل العلوم فيما بينها"¹.

في أفق إعادة بناء موقع السيمبيائيات من أجل رسم المجال السيمبيائي، تتوجه كريستيفا إلى تشريح علاقتها بالعلوم الأخرى. فإذا كانت السيمبيائيات تتشكل كعلم، لأنها تملك موضوعا خاصا هو صيغ وقوانين الدلالة في المجتمع والفكر، فإنها على مستوى عام تتبلور في موقع تقاطع علوم أخرى، لكنها "تحتفظ لنفسها بمسافة نقدية تمكنها من تفكير الخطابات العلمية التي تشكل جزءا منها وأيضا من استخراج الأساس العلمي للمادية التاريخية."²

هذا الازدواج الابستمولوجي، هو ما يحدد الوضع المفارق لموقع السيمبيائيات كعلم نقدي ينظم الأنساق الدالة بطريقة نقدية، ومن جهة أخرى، تتحدد كنقد للعلم" فالنماذج التي تصورها وتركبها السيمبيائية شبيهة بنماذج العلوم الحقة، وكلها تمثيلات. وبهذه الصورة تتحقق في التماسكات الزمكانية، غير أن السيمبيائية وفي هذا الصدد يظهر اختلافها عن العلوم الحقة، وهي علاوة على ذلك إنتاج لنظرية النمذجة التي تكون ماهيتها وجوانيتها: يعني أنها نظرية وبشكل مستمر متضمنة في نماذج كل علم. إلا أن السيمبيائية تظهر هذه النظرية وتختبرها، أو أنها لا تكونها، أي أن هذه النظرية تكون في الوقت نفسه موضوعها (وهذا هو المستوى السيمبيائي للتطبيقات المدروسة) وأدائها (وتعتبر ذلك النوع من النموذج الذي قد لا تناسبه بنية ما أنتجتها النظرية وعينتها)³.

تنتج السيمبيائيات موضوعها، وفي نفس الآن، تفكر في أدواتها واستراتيجياتها، وفي مسار هذا الجدل الذاتي، تصبح نظرية نقدية، أي نقدا للعلم. وتعني هذه الدورة النقدية أن السيمبيائيات هي في الأصل إعادة تقييم دائم لموضوعها أو

1 جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال، 1991، ص 16.

2 المرجع نفسه، ص 17.

3 جوليا كريستيفا: السيمبيائيات كعلم نقدي/أو نقد للعلوم، ص 61.

نماذجها. نقد لهذه النماذج، أي هي نقد للعلوم التي اقتبست منها تلك النماذج، ونقد لذاتها¹.

بهذا الوعي النقدي تتحرك السيميائيات في اتجاه العلوم الأخرى، بحكم أنها تفكر في كل المواضيع المتصلة بالمجتمع والثقافة والفكر. وهذا ما يحدد الروابط الجدلية التي تربطها بالعلوم الأخرى، وبالأخص علوم اللسانيات والرياضيات والمنطق التي تقتبس منها نماذجها. ففي انفتاحها على اصطلاحية هذه العلوم، تعمل على خلخلتها لتعيد إنتاج خطاب جديد وموضوع جديد ومنهج جديد.

وتتم هذه الخلخلة الاستيمولوجية عبر تدمير المقدمات الأولية التي ينطلق منها الإجراء العلمي، ذلك أن اللسانيات والرياضيات والمنطق ليست سوى "مقدمات أولية محطمة" في السيميائيات ولا ترتبط بقانونها الأساسي إلا خارج مجال السيميائية، "وإن ظلت تحتفظ برباط ما، فهو رباط ضعيف جدا. وبعيدا عن كون هذه العلوم الملحقة تعتبر مخزنا فقط لاقتباس النماذج من أجل السيميائية، فإنها تعتبر أيضا الموضوع المرفوض. الموضوع الذي ترفضه لتأسس بجلاء كنقد²."

في إطار هذا التصور الجدلي التفكيكي تتحدد علاقات السيميائيات بالعلوم الأخرى. وبذلك تذهب كريستيفا أبعد من منظور "بارث" لعلاقة السيميائيات بالعلوم. فإذا كان "بارث" يرى العلاقة بينهما علاقة خدمة، تتيح للسيميائيات "أن تسدي خدمات لبعض العلوم وتصبحها في طريقها وتقترح عليها نموذجا إجرائيا، يحدد انطلاقا منه، كل علم نوعية ما ينصب عليه³"، فإن كريستيفا تنطلق من رؤية جدلية ترتقي بالسيميائيات إلى مقام الاستيمولوجية، بصفتها علما نقديا، ونقدا للعلم.

وإذا كان من المستحيل على السيميائيات أن تستغني عن العلوم الأخرى، لأنها لا تمتلك وجودا خاصا، بحكم أن الموضوع الذي تفكر فيه يتصل بمختلف مناحي الثقافة والمجتمع، أي قوانين الدلالة، بحيث تجد نفسها بالضرورة في وضع تداخل

1 المرجع نفسه، ص 62.

2 المرجع نفسه، ص 66.

3 رولان بارث: درس السيمولوجيا، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط 2،

1993، ص 25.

العلوم، تتحرك لتقتبس مفاهيمها واصطلاحاتها منها، فإن هذا التداخل يتم بطريقة جدلية تفكيكية تعيد موقعة المفاهيم داخل السياق الجديد للسميات، مما ينتهي بها إلى الانزياح عن أصلها، حيث يتأسس هذا الانزياح على قانون ابستمولوجي تسميه كريستيفا بـ "جدة اللاجديد".

هذا المفهوم استعارته كريستيفا من ألتوسير: "الموضوع الجديد - كما يصرح بذلك ألتوسير - يمكن أن يحتفظ ببعض الروابط مع الموضوع الإيديولوجي القديم. فقد نجد فيه عناصر تمت بصلة إلى الموضوع القديم أيضا، لكن قد يتغير معنى بعض هذه العناصر في البنية الجديدة التي تزيد على معناها تماما... وماركس نفسه قد مارس هذا التدمير على تجارة الربح "الميركانتيلية" نتيجة زيادة قيمة المنتج "لكن ماركس منح لنفس الكلمة معنى جديدا حيث أوجد معنى "جدة اللاجديد كحقيقة متمثلة في موقفين متغايرين: يعني جدة اللاجديد في كيفية وضع هذه الحقيقة الكائنة في خطابين نظريين"¹.

على قاعدة قانون جدة اللاجديد، وأيضا مبدأ المبادلة في نفس المصطلح عند توظيفه في سياقات نظرية مختلفة تتحدد شبكة التداخلات بين السميات والعلوم الأخرى. يتعلق الأمر، إذن، بقانون جدلي تفكيكي. بموجبه تحدث السميات تحولاً وقلبا في معنى المصطلحات، يتوافق مع رهانات السميات كعلم نقدي. وبذلك توظف هذه المصطلحات بطريقة مغيرة لأصولها المرجعية، حيث تكتسب دلالات مغيرة في المجال السيميائي الجديد الذي تبنيه السميات لنفسها. "إن المصطلحات الرياضية مثل "القاعدة النظرية للوجود" أو "اعتباطية الاختيار" أو المصطلحات الفيزيائية مثل "التساكن" أو المصطلحات اللسانية مثل "القدرة" أو "الأداة" و"التوليد" أو "التكرار" أو المصطلحات المنطقية مثل "الوصل بين الشئيين بوثق" أو "البنيات القائمة التكامل"... هذه المصطلحات جملة وتفصيلا يمكن عند استعمالها وتوظيفها في موضوع إيديولوجي جديد أن تأخذ معنى آخر، شأنه شأن الموضوع الجديد الذي تشكله السميات المعاصرة، والذي يختلف عن الميدان الذي وظفت فيه تلك المصطلحات باعتماد السميات على مفهوم جدة اللاجديد وكذا

1 جوليا كريستيفا: السميات كعلم نقدي/أو نقد للعلم، ص 67.

على المبادلة في معنى نفس المصطلح عند توظيفه في سياقات نظرية مختلفة، تكشف
القناع عن إمكانية ميلاد العلم في الإيديولوجية.¹

في سياق هذا الوضع المتداخل خطايا يتحدد المجال السيميائي بأنه دينامي، إذ
لا يستقر على نسق مغلق، ولا يتقيد بحدود صارمة. وفي بؤرة تفاعلاته يتحدد
كتدخل نقدي للمعرفة العلمية، ينتزع العلوم من مركزها ومن حيادها الصوري
اللانقدي.

من اللساني إلى الدلالي:

إحدى أبرز الرهانات المعرفية للتحليل الدلالي هي صياغة خطاب نظري
ومنهجي قادر على إنتاج معرفة بالاشتغال النصي، يستهدف البحث في مفهوم
النص وديناميته الإنتاجية، بالمقارنة مع خطابات وحقول معرفية أخرى، دون أن
يعني ذلك الانغلاق داخل منظور أحادي. وتتمثل المغامرة المعرفية التي اقتحمت
كرستيفا تحدياتها الاستيمولوجية في صياغة رؤية دينامية للنص تكون نسقية
وانتهاكية، بنيوية وجدلية، نصية وتاريخية.

في هذا السياق تقترح علما جديدا لدراسة موضوع النص بغض النظر عن
نوعه، تسميه التحليل الدلالي (الدلالية)، ينبي كنقد للمعنى ولعناصره وقوانينه،
ويتحدد كعلم للنص يتجاوز حدود السيميائيات: "ولأن علم النص أكبر من أن
يكون مجرد "سيمولوجيا" أو سيميائيات، فهو ينبي كنقد للمعنى ولعناصره وقوانينه
ويتأسس من ثمة كتحليل دلالي.²

يشكل مفهوم "النص" الموضوع الخصوصي للتحليل الدلالي. ما مكانة هذا
الموضوع الخصوصي في خضم الممارسات الدالة؟ ماهي قوانين اشتغاله؟ ما دوره
التاريخي؟

تنظر كريستيفا إلى مفهوم النص نظرة جدلية تزاوج فيها بين ما هو بنيوي-
شكلاني وما جدلي ثقافي، مرتبط بالدلالة التاريخية والاجتماعية. فهي حين تتساءل
عن "قوانين اشتغال" النص وعن "دوره التاريخي والاجتماعي"، تعيد ربط مفهوم

1 المرجع نفسه: 66.

2 جوليا كريستيفا: علم النص، ص 16.

النص بالذات والتاريخ والمجتمع، دون أن تسقط في التصورات الكلاسيكية. لذلك يتخذ النص في منظور التحليل الدلائلي وضعاً دينامياً مغايراً، يتجاوز ما تنسم به النماذج السوسولوجية والاستطبيقية من احتزال.

وفي مشروعها النقدي لبناء خطاب جديد، تتجه كريستيفا إلى بناء المجال المعرفي للتحليل الدلائلي عبر مراجعة جذرية للوضع المعرفي السائد. وفي إطار هذه المراجعة الاستيمولوجية تسجل "غياب كلية مفاهيمية قادرة على التوصل إلى تفرد النص" وتسجيل مواقع قوته وتحوله وصيرورته التاريخية وأثره على مجموع الممارسات الدالة.¹

لذلك تجد نفسها تتورط في سجال نقدي على جبهات متعددة، تزامنية وتاريخية، فلسفية وعلمية، وأدبية، ينتقد التصور المثالي الغارق في الشكلنة الصورية للنص داخل اللسانيات، ويخلخل وهم الموضوعية في النموذج العلمي.

يتلام هذا النقد الجذري مع الخط الطليعي الثوري الجديد الذي كانت تصارع من أجله جماعة "تل كل"، التي تبنت مفهوماً للنظرية كتمارسة جدلية ثورية في مواجهة قوى المحافظة والتقليد. وهذا يوضح أن كريستيفا كانت على وعي استيمولوجي طليعي بالحدود المنهجية والنظرية للوضع السائد لنظرية النص: "لكن إذا كان مفهوم النص، كما طرحناه هنا، ينفلت من قبضة الموضوع الأدبي، الذي تطالب به كل من النزعة السوسولوجية الفجة والنزعة الجمالية، فإننا لا ينبغي أن نخلطه مع ذاك الموضوع المسطح الذي تطرحه اللسانيات كنص، جاهدة في توضيح القواعد البرهانية لتمفصلاته وتحولاته. إن وصفاً وضعياً للطابع النحوي (التركيبى أو الدلالي) أو اللانحوي ليس كافياً لتحديد خصوصية النص كما نقرأه. ولا يمكن لتلك الدراسة أن تدعي توفير نسق من القواعد الصورية القادرة على التغطية التامة لعملية الدلالة، إذ أن عمل هذه الأخيرة يكون دائماً فائضاً يتجاوز قواعد الخطاب التواصلية، ومن حيث هو كذلك فإنه عمل ملحاح داخل حضور الصيغة النصية."²

1 علم النص، ص 8.

2 علم النص، ص 14.

ولأن النص في منظور التحليل الدلالي يتجاوز اللسان، عبر عملية مواجهة (مفهوم الدلالية) تتم داخل مادة اللسان، تقود إلى خلخلة اللسان وانتزاعه من لاوعيه ومن آلية اشتغاله اليومي، فإنه يتشكل كدليل عبر لساني، يفشل الوصف اللساني في إدراك قوانين اشتغاله النصي، ذلك أن دينامية التدليل تتخطى منطق اللغة التواصلية، التي لا تمثل سوى الوجه السطحي للسان.

وفي هذا الفعل الثوري للتجاوز الذي تقوم به الدلالية عبر تحويل مادة اللسان في تنظيمه النحوي والمنطقي، يقوم النص (سواء كان أدبيا أو شعريا أو غيره) "بجفر خط عمودي (في مساحة النص) تتلاقى فيها نماذج هذه الدلالية التي لا تحكيها اللغة التصويرية والتواصلية حتى وإن كانت تسمها بميسمها. إن النص يتوصل إلى هذا الخط العمودي من كثرة اشتغاله على الدال. تلك البصمة الصائتة التي رأى سوسير أنها تغلف المعنى، والتي نحن مطالبون بالتفكير فيها بالمعنى الذي منحه لها التحليل اللاكاني".¹

هذا المستوى العمودي لاشتغال النص، تبتكر له كريستيفا مفهوما جديدا تسميه "بالدلالية": "نعني بالدلالية هنا هذا العمل المتعلق بالتمييز والتنضيد والمواجهة الذي يمارس داخل اللسان، وي طرح على خط الذات المتكلمة سلسلة دالة تواصلية ومبينة نحويا. وسيكون على التحليل الدلالي الذي يدرس هذه الدلالية وأنماطها داخل النص، أن يخترق الدال - ومعه الذات والدليل والتنظيم النحوي والخطاب - بغية الوصول إلى الدائرة التي تتجمع فيها بذور ما سيتكفل بعملية الدلالة في حضرة اللسان".²

بهذا المفهوم الدلالي الذي توطر ضمنه كريستيفا اشتغال الدلالة في النص، ونعني به مفهوم الدلالية تحقق نقلة إبستمولوجية³، عبر الانتقال من مفهوم الدلالة إلى مفهوم الدلالية، وهو ما يترتب عنه الانتقال بالبحث الدلالي من العلامة اللسانية، إلى العلامة عبر اللسانية.

1 علم النص، ص 8.

2 علم النص، ص 8.

3 أنظر كتابنا إستراتيجية التأويل من النصية إلى التفكيكية، منشورات الاختلاف، دار الأمان، بيروت، 2011، ص 33.

إن الجدة التي طرحها مفهوم الدلالية تظهر في أنه يقطع مع التصور اللساني للدلالة الذي يحصر النص في التعبير عن مدلول، تارة يعتبر ظاهرا. وفي هذه الحالة يعتبر موضوعا للسانيات. وتارة أخرى ينظر إليه على أنه تعبير عن مدلول مضمّر وخفي. وفي هذه الحالة يكون موضوعا لتأويل اجتماعي أو نفسي..

بخلاف ذلك يؤكد مفهوم الدلالية على تصور دينامي للمعنى، لا يكون النص ضمنه مجرد حامل لمعنى أو إخبار برسالة ومعلومات، بل ممارسة دالة تعيد توزيع نسق اللسان، من خلال الاشتغال على قوانين الدال.

وعبر هذا الإبدال في مفهوم النص، تكون كريستيفا أحد أبرز المنظرين الذين قاموا بنقش المنعطف الاستيمولوجي نحو الانتقال من الاستيممي البنيوي إلى الاستيممي ما بعد البنيوي. فطبقا لرهانات التحليل الدلالي لم تعد غاية التحليل إظهار بنية موحدة للنص، تعتبر تجليا لبنية مجردة في إطار نحو النص، ولكن إنتاج بنية للنص، تعين تعدده، وانفلاته من أي شكل (بنية) نهائي ومكتمل. وبذلك استبدلت الصورة السكونية المغلقة عن النص التي ترافق مفهوم البنية، بصورة دينامية تفكيكية مفتوحة، معبر عنها بمفاهيم الدلالية والهدم والبناء وإعادة التوزيع، والممارسة والإنتاجية.

ويصدر مفهوم الدلالية عن منظور دينامي لاشتغال المعنى وليس عن منظور كمي. فالنص في سياق صيرورة التدليل ليس مجرد مستودع للمعاني، ولا ينطوي فقط على دلالات متعددة، تعود إلى وفرة معانيه، وإنما صيرورة دينامية مفتوحة على اشتغال السيميوزيس بلغة السيميائي الأمريكي "بيرس". إنه اشتغال دينامي لا يخضع لمركز تنظيمي للمعنى، بحيث تغدو "الدلالية عبارة عن لامتناهية اختلافية ذات تركيبات غير محدودة عددا وامتدادا".¹

هذا البعد السيميوزيسي هو ما يحدد المستوى الأول لإنتاجية النص "كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان. بمعنى أن علاقته باللسان الذي يتموقع داخله هي علاقة إعادة توزيع (صادمة بناءة) ولذلك فهو قابل للتناول عبر المقولات المنطقية لا عبر اللسانية الخالصة"².

1 علم النص، ص 10.

2 علم النص، ص 21.

بالمقابل يحدد البعد التناسي إنتاجية النص كفعل تحويلي مفتوح على الأنساق المفتوحة للكتابة، يعيد تنظيمها بطريقة نقدية حوارية، بحيث لا يمكن أن يكون ذاته سوى في اختلافه وانفتاح ممارسته الدالة باعتبار "أنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتناهي ملفوظات عديدة مقطعة من نصوص أخرى.¹"

ويمثل هذا الفعل الانتهاكي (تغيير نسق اللسان) الذي يقوم به النص عبر آلية الدلالية، أساس الإستراتيجية النصية في تغيير طبيعة النسق السيميائي المتحكم في التبادل الاجتماعي. وفي هذا المستوى من اشتغال النص داخل السياق الثقافي، تعيد كريستيفا التفكير في دور النص، وتحقق انزياحا عن النموذج الانعكاسي الذي يختزل علاقة النص بالواقع في مفهوم الانعكاس. ذلك أنما بتأكيدا على قوانين الدال في الاشتغال النصي ومفاهيم الدلالية والتناص وإعادة التوزيع التي تعمق الفجوة بين النص والمرجع، ترسي مسافة سيميائية بين النص والواقع: "هكذا سيتموقع النص في الواقع الذي ينتجه عبر لعبة مزدوجة تتم في مادة اللسان وفي التاريخ الاجتماعي... وبصيغة أخرى، فإن النص ليس تلك اللغة التواصلية التي يقننها النحو، فهو لا يكفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه. فحيثما يكون النص دالا فإنه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به لحظة انغلاقه. بعبارة أخرى لا يجمع النص شتات واقع ثابت أو يوهم به دائما، وإنما يبني المسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة لها. فعبر تحويل في مادة اللسان (في تنظيمه المنطقي والنحوي)، وعبر نقل علاقات القوى من الساحة التاريخية (في مدلولاتها المنظمة من موقع ذات الملفوظ المبلغ) إلى مجال اللسان ينقري النص ويرتبط بالواقع بشكل مزدوج. فهو يرتبط باللسان (المنزاح الذي خضع للتحويل) وبالجمتمع (الذي يتوافق مع تحولاته).²"

إن النص في تموقعه داخل السياقات الثقافية والخطابية والتاريخية، لا يعين مرجعا، ولا يحيل على واقع مباشر، إنه يعين هذه الإستراتيجية الدلالية، تحويل مادة

1 علم النص، ص 21.

2 علم النص، ص 9.

اللسان عبر إعادة توزيع مقولاته المنطقية والنحوية وتغيير قوانينه الدلالية، والتي تقود بالضرورة إلى المس بالقوانين الاجتماعية والتاريخية. "فالنص إذن خاضع لتوجه مزدوج: نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب.¹"

هذا التوجه المزدوج للنص في سياقه الثقافي والاجتماعي، هو ما يحدد النص كإيديولوجيم. وطبقا لهذا المفهوم، يساهم النص في السيرورة الاجتماعية كخطاب وليس كتصوير للواقع أو إحالة مباشرة على مرجع خارجي، "إن النص لا يسمى ولا يحدد خارجا معينا: إنه يعين كخاصية (كتناغم) تلك الحركة الهرقليطية التي لم تستوعبها أية نظرية للغة - الدليل - والتي تحدد الفرضيات الأفلاطونية المتعلقة بجوهر الأشياء وصورها عبر تعويضها بلغة ومعرفة مغايرتين بدأنا الآن فقط نمسك بماديتها داخل النص. فالنص إذن خاضع لتوجه مزدوج: نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه (لسان ولغة مرحلة ومجتمع محددين) ونحو السيرورة الاجتماعية التي يساهم فيها كخطاب.²"

هذا الاشتغال الدلالي عبر توسط قوانين الدال، هو ما يحرر النص من أي تبعية ميكانيكية لجوهر ميتافيزيقي أو واقع متعال، كما نعثر على ذلك في النموذج الانعكاسي. بمختلف أنماطه السوسولوجية والسيكولوجية.

إن مفهوم الإيديولوجيم هو ما يحدد أثر النص داخل النص العام الذي هو الثقافة، وهو يعني "تلك الوظيفة للتداخل النصي التي يمكننا قراءتها "ماديا" على مختلف مستويات بناء كل نص تمتد على طول مساره مانحة إياه معطياته التاريخية والاجتماعية.³" ولا يتعلق الأمر هنا بإجراء تأويلي لاحق على التحليل، يفسر ما تم تحليله بنيويا ولسانيا، بتحيزات إيديولوجية مسبقة. بل بإجراء منهجي يحدد منهجية السيميائيات التي وهي تدرس النص كتداخل نصي، تموقعه في نص المجتمع والتاريخ. فالنص كإيديولوجيم يوقع نفسه خارج حدود اللسانيات والمنطق، عبر حفر خط عمودي في مساحة النص، تنقشه عملية الدلالية. ويمثل هذا الفعل الانتهاكي

1 علم النص، ص 1

2 علم النص، ص 9.

3 علم النص، ص 22.

شرط اشتغاله كتمارسة دالة في السياق الاجتماعية والتاريخي، بحيث لا يكفي بتصوير الواقع أو الدلالة عليه، "فحيثما يكون النص دالا (أي في هذا الأثر المنزاح والحاضر حيثما يقوم بالتصوير) فإنه يشارك في تحريك وتحويل الواقع الذي يمسك به في لحظة انغلاقه. بعبارة مغايرة، لا يجمع النص شتات واقع ثابت أو يوهم به دائما، وإنما يبني المسرح المتنقل لحركته التي يساهم هو فيها ويكون محمولا وصفة لها¹".

نفهم من هذا، أن كريستيفا تقترح شبكة من المحددات والوسائط بين النص والمرجع، أشد تعقيدا من تلك التي يسلم بها النموذج الانعكاسي في النظرية الماركسية، أو التي يقعد لها النموذج اللساني الصوري، وذلك عندما تقول بأن النص يحدث تحويلا في نسق اللغة الذي يتحكم في نظام التبادل الاجتماعي، دون أن يرتبط بالواقع بصورة مباشرة، لأن أثر النص كإيديولوجيم في الواقع يمر عبر اشتغال قوانين الدال، أي عبر ما تسميه الدلالية، التي تشكل ما يمكن تسميته بالمسافة السيميوطيقية بين النص والمرجع، وبالتالي يظل النص في صيرورته دائما على مسافة من الواقع. وهذا يبين الإبدال الفارق في سيميائيات كريستيفا، لأن المسافة السيميوطيقية توضح الاستراتيجية التي يمكن بها جعل اللغة بؤرة التحليل في كل بحث في آثار النص في السياق الثقافي، وأدواره في تشكل الذات، وإعادة توزيع نسق التبادل الاجتماعي.

الرمزي: الرغبة، الأنثوي:

مع بداية الثمانينات تقتحم جوليا كريستيفا المعترك الحاسم للنظرية النسوية. لكن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن كريستيفا ستتورط في هذه المعركة السجالية الجديدة مسلحة بنظريتها الجدلية في السيميائيات، ولذلك سنجد مفاهيم سيميائية مثل "السيميوطيقي" و"الرمزي" و"الشعري" و"الذات" و"التدليل"... توجه تدخلاهما في الحراك النسوي.

هذا الانزياح الجديد في مسار البحث عند كريستيفا لم يكن عرضيا أو حادث مصادفة، بل مبني على مسوغات معرفية، لأن التوجه التحليلي - النفسي

1 علم النص، ص 9.

لعملها السيميائي قادها للتأمل في طبيعة الأنثوي (الذي تراه كمصدر لما لا يمكن تسميته والتعبير عنه). لذلك سنجد أن الاشتغال باللغة ومظاهرها يظل حاضرا ومنقوشا في استكشافاتها الحفرية لاشتغال النسق الأنثوي، تبحث في صيرورته وآثاره على محور الكتابة والتلفظ والذات المتكلمة واللاوعي، بحيث يمكن أن نقول بأن كريستيفا تعني بالأنثوي نمطا من الاشتغال السيميائي، لا موضوعا منتهيا في ذاته ومتبادلا في صيرورة التواصل. إنه في صيرورة اشتغاله يقترن بمحور "السيميوطيقي".

ويمكن أن نجد تفسير هذا التوجه النسوي، في التصورات المؤسسة لسيميائيات كريستيفا، حيث انصب نقدها التفكيكي في أوائل السبعينات - كما رأينا - على النماذج اللسانية والسيميائية ذات الطابع المنطقي الصوري، التي اتجهت إلى التعقيد الصوري للغة. وفي إطار مراجعتها الابستمولوجية ترى أن النظرة الساكنة للغة ترتبط بفكرة أن اللغة يمكن اختزالها إلى تلك الأبعاد المنطقية التي بإمكان الوعي أن يفهمها، مع إقصاء البعد المادي المتغير اللاوعي. ولذلك ستعيد اكتشاف دور اللاوعي في بناء خطاب الذات.

إن الاهتمام باللاوعي الذي ظل لامفكرا فيه ضمن نظرية اللغة، سيقود كريستيفا إلى تطوير نظريتها في الذات "كذات في صيرورة". وهو التصور الذي أحدث قطيعة مع التصور الديكارتي للذات الواعية والمتماثلة، المتسامية على أهوائها ورغباتها، التي تزهر بوحدة تماثلها في مشهد الوعي الظاهر، والتي يمكنها التحكم في خطاها بإرادة القول.

هذه الذات الديكارتية بفعل مطرقة الهدم التحليلي - نفسي ستتشظى في مسرح اللاوعي، بحيث لم تعد تعكس وعيا حاضرا، ولكن صيرورة ازدواج موزعة بين الوعي واللاوعي، الحضور والغياب، الرغبة والقانون، "بل هي أيضا ما لا يمكن التحدث عنه، ما لا يمكن تسميته: ذلك الشكل المكبوت الذي يمكن معرفته فقط من خلال آثاره."¹

هكذا بالاتكاء على المنظور المختلف الذي أخذت تتبدى فيه العلاقة بين اللغة

1 جون ليشته: خمسون مفكرا أساسيا معاصرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة فاتن البستاني، المنظمة العربية للترجمة، ص 293.

والذات على مستوى اللاوعي، مع مدرسة "التحليل النفسي"¹ التي أسسها "فرويد" وطورها "لاكان". بمفاهيم لسانية وسيميائية، ستعمل كريستيفا على تطوير نظريتها في "السيميوطقي"، حيث سيتم اكتشاف التفاعل الخلاق بين اللاوعي واللغة، والذات المتكلمة "مما أعاد الاعتبار إلى تفاعل اللاوعي - بوصفه «سلسلة دالة» - مع الموضوع، بهدف الوصول إلى استكناه «لاشعور اللغة».

على قاعدة هذه الحفريات في اللاوعي، تميز كريستيفا بين "السيميوطقي" من جهة، وبين السيميوطيقا، أي نظرية العلامات التقليدية، و"الرمزي" من جهة أخرى، أي دائرة التمثيلات، والصور، وكافة أشكال اللغة الملفوظة بصورة تامة. إن "الرمزي" في تعريف كريستيفا هو "نتاج اجتماعي للعلاقة مع الآخر.. ليتأسس من خلال التقييدات الموضوعية التي تمارسها الاختلافات البيولوجية (بما فيها الجنسية)، والبنى العينية والتاريخية للعائلة".²

الرمزي إذن، هو نتاج للكيفية التي يرتبط وينتظم بها الناس، كما تحددها الاختلافات البيولوجية، والوراثية، والاجتماع. لذلك فهو شكل سلطوي، يمثل القانون وسلطة الأب، لأنه يعمل كما وضع "لاكان" عن طريق النفي الأبوي: أي قانون الأب³. وبسبب ذلك، فالرمزي يفرض الذات ويكبح تدفقها وطاقته لتتحرر والتمرد على سلطة الأب.

بالمقابل، يتميز السيميوطقي ب"التدفق والوسوم، والتمهيد العصبي.. وبتحولات الطاقة، وبتقطيع متصل جسدي واجتماعي، وتقطيع محتوى المادة الدلالية".⁴

وإذا كانت العلامة والتركيب سمن خاصيات الوظيفة الرمزية، فإن سمات التدفق، والطاقة، والموسيقية، والأمومة والقابلية على التلقي - باختصار اللغة الشعرية - يمكن أن تنسب إلى السيميوطقي.

1 J. Kristeva: Psychanalyse et Langage, in Le Langage cet inconnu, Seuil, 1981, Paris, p. ; 263.

2 ج هيو سلفرمان: نصيات، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، 2002، ص 257.

3 نصيات، ص 257.

4 نصيات، ص 259.

في ضوء هذا الاستقطاب بين السيميوطيقي والرمزي، يتحدد شكل الخطاب بالنسق الذي يكون فاعلا فيه في وقت معين. "وسواء أكان الخطاب نظرية، أو نصا سرديا، أو شعرا، أو لغة واصفة، أو أي شكل من أشكال الخطاب، فإنه سوف يتحدد من طرف ما يؤديه السيميائي أو الرمزي من وظيفة خاصة.¹

وتنظر كريستيفا إلى العلاقة بين السيميوطيقي والرمزي على أنها جدلية. فعلى الرغم من أن أحد النسقين قد يهيمن أحدهما على الآخر، في أي لحظة، إلا أنهما لا يعملان منفصلين، لأن أحدهما لا يقصي الآخر على الإطلاق، لدرجة أن يستقل استقلال كليهما.

على المستوى النصي الصريح، يقابل السيميوطيقي والرمزي على التوالي ما تسميه كريستيفا "النص التوليدي" (البنية العميقة بمفهوم تشومسكي). إنه أساس اللغة، ويمثل سيرورة. أما "النص الظاهر" (البنية السطحية بمفهوم تشومسكي) يقابل لغة التواصل، ويمثل المستوى الخطي للنص..

وعلى الرغم من هذا التمييز، فإن النص التوليدي والنص الظاهر لا يوجدان بمعزل عن بعضهما. إنهما يوجدان معا في صيرورة الدلالة.

في سياق هذا التوجه التحليلي - نفسي، وبالتحديد ثنائية السيميوطيقي/الرمزي، تطور كريستيفا مفهومها للأثنوي. فالسيميوطيقي يصبح مساويا للمجال الأثنوي، وهو بصورة تقريبية مكان الأم الذي لا يمكن استحضاره أو تمثيل معناه. إنها أصل من نوع ما، لكن ليس من النوع الذي يمكن تسميته، لأن ذلك سيضعه داخل العالم الرمزي ويعطينا فكرة خاطئة عنه.

هكذا تنظر كريستيفا للأثنوي كإمكانية ثورية للتحرر من سلطة النظام الأبوي وتفكيك كافة أشكال التمرکز الثقافية، لأنه ينتمي إلى محور "السيميوطيقي"، حيث يشتغل في ممارسته السيميائية على جانب البعد المادي والشعري للغة. وتجدر الإشارة إلى أن كريستيفا لا تعني باللغة الشعرية استعمالا معياريا خاصا بجنس الشعر، بل تعني به نمطا من الممارسة الدالة. والشعري هنا يتجاوز التقابل البلاغي بين الشعري والثري، الحقيقي والمجازي، الأدبي

والمرجعي، إلى ثنائية أكثر تعقيدا وجذرية، بين مبدأ الواقع/مبدأ اللذة، الإذعان/التمرد، الخنوع/الثورة. باختصار كل ما يضع الحدائي الطليعي في مواجهة التقليدي المحافظ، أو السيميوطيقي المتحرر في مقابل الرمزي "الجامد"، أو مقابل المرحلة الأوديبية قبل الإذعان إلى سلطة الأب واسمه (ومن ثمة المجتمع)، في مواجهة المرحلة الأوديبية التي يمثل فيها الأب السلطة الاجتماعية وديكتاتورية الرموز¹.

وتنظر كريستيفا إلى الكتابة النسوية بوصفها إمكانا ثوريا في المجتمع، تتسم بالقدر نفسه من الازدواجية والانتهاك والتمرد والدفق الدينامي. إن خاصية الثورة التي تقرأها بالشعري ليست صفة مجازية، فإمكان التغير الاجتماعي يرتبط في رأيها، بالقضاء على أشكال الخطاب التسلطية. "واللغة الشعرية تتيح الانفتاح الانقلابي للسيميوطيقي عبر النظام الرمزي المغلق، فما تسعى إليه نظرية اللاوعي تمارسه اللغة الشعرية داخل النظام الاجتماعي وضده."²

وتنظر كريستيفا إلى "الثورة الشعرية على أهما وثيقة الصلة بالثورة السياسية بوجه عام، وتحرر النساء بوجه خاص. إذ لا بد للحركة النسائية من "ابتداع شكل من الفوضوية" يستجيب إلى خطاب الطليعة. فالفوضوية هي الموقف السياسي والفلسفي الذي لا بد أن تتبناه حركة نسائية عقدت العزم على تدمير هيمنة مركزية القضيب."³

وانطلاقا من تحليل "فرويد" لتشكل الذات، حيث ينبثق اللاوعي بدقة داخل الحكم الواعي، تؤكد كريستيفا على البعد الثوري للغة الشعرية، حين تسند إليها مهمة النفي "لنعد إلى خصائص النفي في اللغة الشعرية. فانطلاقا من الجمع اللاتركيبية الذي يطبع المدلول الشعري، ومن البنية التكاملية الدقيقة التي تنظم صور اللغة الشعرية، سنساق إلى الاعتقاد بأن النمط الخاص من الاشتغال الرمزي الذي هو اللغة الشعرية، يكشف عن ميزة خصوصية للعمل الإنساني حول الدال، غير خاصة بالدليل والذات. في هذا الفضاء المغاير تتقوض القوانين، تذوب الذات

1 رمان سلدن: النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار أنباء، القاهرة، 1998، ص 127.

2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 128.

3 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 214.

ويتأسس في مكان الدليل تصادم للدوال وهي تنفي الواحد الآخر. إنها عملية سلب معمم¹.

على هذا المحور التحليل النفسي الخاص باللاوعي والشعري والسيميوطقي، تطرح كريستيفا مفهوم الأنثوي كقوة دينامية للتححرر، متجاوزة النزعة النسوية البيولوجية، بواسطة إقامة صلة تربط بين "الأنثى" والممارسات الدالة ومنها الشعري، التي تميل إلى تقويض سلطة خطاب "الذكر"، فتبرز كل ما يعمل على تحريض اللعب الحر لصيرورة التدليل ويمنع "الانغلاق"، بوصفه أنثى، على نحو تغدو معه النزعة الجنسية الأنثوية ثورية تدميرية متغيرة الخواص "منفتحة". وميزة هذه الإستراتيجية الانتهاكية المنفتحة، أنها تتفادى الوقوع في خطر الانغلاق، الذي يهدد بتحويل النسوية إلى إيديولوجية متمركرة حول ذاتها. ذلك أن التوجه السيميوطقي للأنثوي يمثل حماية له من خطر التقوقع والقبولة. لذلك ترفض كريستيفا تحديد النزعة الأنثوية كنسق مغلق، حين تؤكد على مفهوم الذات كصيرورة. إذا كان هناك مبدأ أنثوي، فإنه ليس سوى البقاء خارج تعريف الذكر للأنثى.

وما يمنع هذا الانغلاق الجنسي، هو الخاصية الانفتاحية للأنثوي، حيث النزعة الجنسية للأنثى ترتبط ارتباطا مباشرا بالخاصية الإنتاجية الشعرية، أي بالحركات النفس - جسدية التي تمزق استبداد المعنى المركزي وخطاب مركزية اللوغوس (من ثم منطق خطاب القضيب).

وهذا يتلاءم مع المفهوم المركزي في سيميائيات كريستيفا الذي يقوم على دينامية الاستقطاب بين الأنساق العقلانية "المغلقة" والأنساق "المفتوحة" اللاعقلانية. والشعري كخاصية للأنثوي، يوضح كيف أنه ينفتح في صيرورته الدلالية، على الدوافع الأساسية للرغبة والخوف الذي يعمل خارج الأنساق العقلانية، حتى وإن كان يتأسس على نسق عقلي (اللسان). وهنا ينبغي استعادة تمييز كريستيفا بين "السيميوطقي" و"الرمزي" الذي هو أصل العديد من الاستقطابات الأخرى. ففي الأدب الطليعي - بحسب كريستيفا - تغزو العمليات الأولى بمفهوم "لاكان" التنظيم العقلاني للغة، وتحدد بتمزيق الذات

1 علم النص، ص 91.

المتحدة لكل من المتكلم والقارئ، تلك الذات التي لا تنظر إليها كريستيفا بوصفها مصدر المعنى، بل موقع المعنى الذي يمكن أن يعاني من تشتت جذري للهوية وفقدان للتلاحم. إن الحركات التي يعينها الطفل في المرحلة قبل الأوديبية أشبه باللغة ولكنها لم تنتظم في لغة بعد. ولكي تصبح هذه المادة "السيمبوتيقية" مادة "رمزية" فلا بد لها من الاستقرار الذي يتضمن كبتا للمحركات الإيقاعية المناسبة. وإذا كان التلفظ الذي يقارب الخطاب السيمبوتريقي أكثر من غيره هو "البريرة" قبل الأوديبية للطفل - (أي الأصوات الأولى للطفل قبل أن يتعلم اللغة، ويدخل المرحلة الأوديبية، التي ترتبط بالخضوع إلى النظام، القانون، النسق، وكل ما يسميه لاكان "اسم الأب" أو "قانون الأب") - فإن اللغة تستبقي بعض الدفع السيمبوتريقي لهذه "البريرة"، ويميل الشاعر بوجه خاص إلى إبراز هذا الدفع الإيقاعي. وما دامت الحركات الجسدية النفسية هي محركات قبل أوديبية فإنها ترتبط بجسد الأم، فالبحر المنساب تلقائيا من الرحم، والحسية التي تحيط بشدي الأم، هما أول مكانين للتجربة قبل الأوديبية¹. ومعنى ذلك أن السيمبوتريقي يرتبط ارتباطا حتميا بجسد الأنثى، أما الجسد فيرتبط بقانون الأب الذي يراقب ويكبت لكي ينشأ الخطاب. إن المرأة هي صمت اللاوعي الذي يسبق الخطاب، والآخر الذي يقف خارجا يهدد بتمزيق النظام الواعي (العقلاني) من الكلام. ولكن من ناحية أخرى إذا كانت المرحلة قبل الأوديبية غير قائمة على التمييز الجنسي، فإن السيمبوتريقي ليس أنثويا تماما².

الأنثوي، إذن، هو الدفع المتحرر للسيمبوتريقي، لذلك تؤكد كريستيفا على حق النساء في هذا الدفع غير المقموع وغير القامع من الطاقة المتحررة. فالشاعر الطليعي - رجلا أم امرأة - يدخل جسد الأم ويقاوم اسم الأب. ومثال ذلك مالارميه الذي يمزق قانون الأب بتمزيق قوانين النحو، ويتحد بالأم باستخلاصه الدفع السيمبوتريقي "الأمومي"³. في هذا التحليل الدلائلي يكمن تميز موقف كريستيفا من قضايا النساء، على خلاف النزعة النسوية الأنجلو أمريكية التي

1 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.

2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.

3 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 213.

تتميز بتمركزها البيولوجي، حيث تتبنى كريستيفا مواقف تدميرية أكثر تعقيدا، تؤكد على وجود الاختلاف في بنية الذات بوصفها "آخر" (سواء كانت أنثى أم ذكرا).

ما يهم كريستيفا هو مفهوم الأنثوي كممارسة دالة يمارس فيها التحويل الابستمولوجي والاجتماعي والسياسي، لأنه يقود إلى سلسلة متنوعة من الانزياحات والتجاوزات على مستوى النسق الرمزي المتحكم في التبادل الاجتماعي، ولا يخضع لأية مواقف متمركزة مثلما نجد في النزعة النسوية الأمريكية. ولذلك تركز كريستيفا في تحليلاتها للأنثوي على سيرورات النصية والكتابة والدليل، وليس على السياسات النسوية الإيديولوجية ضد الرجل.

وبسبب إلحاح كريستيفا على هذا الموقف الجذري الحاسم، في ضرورة تبني النساء موقفا فوضويا متمردا على الصعيد السياسي والفلسفي، تعرضت لموجة من النقد، باعتبار أن موقفها التفكيكي يقود إلى نوع من الفوضى والتناقض في كتابتها¹، يتعارض مع ما يتطلبه الموقف الملزم بقضايا المرأة من وضوح في الإيديولوجية النسوية، لذلك تحذر غاياتري سيفاك "من أن عدم استقرار المعنى في ذاته لن ينهض بالضرورة بمستقبل نسوي، كما لن يتجنب حتمية التحديد التاريخي على أساس الذكورة والأنوثة"².

هنا يكمن جوهر الاختلاف بين كريستيفا والحركة النسوية السياسية. في الوقت الذي تعطي الحركة النسوية الأسبقية للسياسي، يحتل التفكيكي الأولوية لدى كريستيفا، وتعارض سياسات الجنس في بناء الاختلاف، وبالتالي تعارض التمييز على أساس الذكورة والأنوثة. وحين تبني كريستيفا موقفها من الحركة النسوية على أساس اشتغال السيميويزيس في أفق للدلالة لامتناهي، وغير محدد، يفرض خندقة الذات في نسق مغلق، فهي لا تعبر بالضرورة عن موقف فوضوي عديمي، تقول "إن العملية المتغيرة الخواص (الدلالية) ليست أساسا فوضويا ومنتشظيا، ولا سدا انفصاميا، إنما هي ممارسة بناء وهدمه،

1 Roger Webster: Studying literary Theory, Arnold, 1997, p. ;80.

2 بيل أشكروفت، غاريت غريفيت، هيلين تيفين: الرد بالكتابة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ص 290.

وعبور إلى التخوم الخارجية للذات والمجتمع. وحينئذ فقط يمكن أن تكون هناك متعة وثورة.¹

ويبدو لنا النقد الموجه للهدم التفكيكي في ممارسة كريستيفا، يتجاهل الطابع المتغير الدينامي لمفهوم الذات في الابستيمي ما بعد البنيوي، مما يؤكد على أن "الغربة" شرط لكل تعيين للهوية. فالغريب في مفهوم كريستيفا يشكل مكونا محايثا للذات. إنه القوة الخفية التي تسكن الذات، وتعبر عن التناقضات والاختلافات الداخلية التي غالبا ما يتم كبتها، ويتحایل الوعي على نفيها في طبقات اللاوعي. ولذلك لا توجد الغربة فقط على مستوى العلاقة مع الآخر المختلف جنسيا أو عرقيا أو ثقافيا، بل تشكل بنية الذات وأنظمتها في التلفظ والتمثيل، بحيث تصبح بنية الذات في أصلها غير متجانسة، ومتغيرة، وهذا ما تعينه كريستيفا بتصورها عن الذات كصيرورة منفتحة مفتوحة، بحيث تتحول إستراتيجية تحديد الهوية إلى صيرورة اختلاف وليس تطابق. وهذا يتعارض مع القول بوجود هوية أنثوية موحدة في مقابل الآخر/الرجل.

يقتضي الاختلاف، إذن، أن الهوية النسوية غير متجانسة، وبالتالي متغيرة الخواص، تنتج صورها في صيرورة الاختلاف. وهنا تكمن ميزة منظور كريستيفا، في التفاتها إلى لغة النصية والخطاب والعلامة والكتابة واستراتيجيات التلفظ (الذات المتكلمة) في محاولة لفهم بنية الأنثوي. وذلك على خلاف النزعة النسوية السياسية التي تتعامل مع قضايا المرأة من منظور إيديولوجي يقوم على التمييز بين الرجل والمرأة، بحيث تصبح العلاقة بفعل ضراوة هذا الاستقطاب قائمة على المواجهة والإقصاء. وميزة المنظور التفكيكي أنه يتيح لكريستيفا أن تظل خارج سياسات هذا الاستقطاب، وهو ما يشكل حماية للذات من الوقوع في فخ الأنساق الإيديولوجية المغلقة. وهذا ما حذرت منه كريستيفا، حين رأت أن بعض الحركات النسوية السياسية بسبب تركزها الجنسي، وتوجهها السياسي تحولت إلى حركات توتاليتارية. ولذلك سنجد كريستيفا وبسبب توجهها التفكيكي ترفض تبني مقولة "الكتابة النسائية" التي دافعت عنها جماعة "ناقداً الخصائص النسائية"² في محاولة

1 سلفرمان: نصيات، ص 262.

2 النظرية الأدبية المعاصرة، ص 202.

لبناء "أدب خاص بالنساء"، لما فيها من نزعة تمييزية جنسية، ولأنها تتعارض مع فكرة كريستيفا عن "الذات كصيرورة" غير متمركزة، بل متحولة في الدفق الدينامي للسيميوطيقي. فالنص لدى كريستيفا - كما رأينا - يقوم على لعب الدال وانفتاح الدلالة، وعلى تحويل قوانين نسق اللسان، وبالتالي لا يخضع للتقييدات الجنسية والحتمية البيولوجية.

إن التأكيد على استراتيجيات النصية، هو أيضا تأكيد على لذة الكتابة التي تقود إلى تأكيد الأشكال المتعددة والمتحررة للذاتية. وفي هذا المنظور، يتم تقويض الخطاب الأبوي من خلال اللعب، أي قوانين الدال وليس بالمواجهة والإقصاء. إن ما يقدمه لنا مفهوم النصية عند كريستيفا من امكانات واستراتيجيات لا يفيد فقط في فهم كيفية اشتغال اللغة والكتابة وتعيين الذات كذات نصية، ولكنه يطرح علينا رهانا استراتيجيا هو أن نعيد التفكير في منطق السببية والحتمية الذي نفهم من خلاله السياسي والإقرار بقوة الكتابة وشروط انزياحها التدميرية.